

القسم الرابع

سراري رسول الله ﷺ

روى ابن أبي خيثمة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: كان لرسول الله ﷺ أربع ولائد:

مارية القبطية - و - ريحانة من بني قريظة ومن بني النضير على خلاف في ذلك. و - كانت له جارية أخرى جميلة، أصابها في السبي، فكادها نساؤه، وخشين أن تغلبهن عليه. و - كانت له جارية أخرى نفيسة، وهبتها له زينب بنت جحش، وكان هجرها في صفة بنت حُيَيِّ ذا الحجة ومحرم وصفر، فلما كان في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه النبي ﷺ رضي عن زينب، ودخل عليها، فقالت: ما أدري ما أجزيك به؟ فوهبتها له، انتهى كلام أبي عبيدة^(١).

مارية القبطية رضي الله عنها
اسمها واسم أبيها:

مارية القبطية بنت شمعون رضي الله عنها:

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس:

أرسل رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه فيها إلى الإسلام، جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم

(١) السمت الثمين / ١٦٢، زاد المعاد ١/ ١١٤، تلقيح فهورم أهل الأثر ٢٨.

تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»^(١).

وكان حاطب بن بلتعة، رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس، ولما سلمه الرسالة قرأها عظيم القبط بعناية وتقدير، ثم دعا كاتبه وأملى عليه الرد التالي:

رد المقوقس على النبي ﷺ:

«أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك، ويعث لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، ومطية لتركبها، والسلام عليك».

وعاد «حاطب» إلى المدينة المنورة بكتاب المقوقس إلى رسول الله ﷺ، مصطحباً معه مارية وأختها سيرين وعبدأ خصياً يدعى (مابور)، وألف مثقال ذهباً، وعشرية ثوباً ليناً من نسيج مصر، وبغلة شهباء «لدل» وجانباً من عسل «بناها» وبعض العود والمسك والند. واصطفى رسول الله ﷺ «مارية» لنفسه، ووهب أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت» ووزع باقي الهدايا. وأنزل مارية في العالية، في مشربة أم إبراهيم. وأسلمت مارية وأختها سيرين، وضرب عليها الحجاب، ولم يكن لها هم إلا إرضاء سيدها ﷺ.

وغدا تردد رسول الله ﷺ إلى العالية حيث تقيم مارية ومكوته الطويل لديها يشير غيرة نسائه ويضرم نارها في صدورهن.

تبشيرها النبي ﷺ بالحمل:

وذات مساء زفت «مارية» إلى سيدها أجمل بشرى، إنها حامل، وكانت فرحة عظيمة، وخبراً ساراً استقبله النبي ﷺ بحمد الله والشكر له. وسمع أهل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٨٥، والمحب ٩٨، وعيون الأثر ٢/ ٢٦٦. والآية ٦٤/ آل عمران.

المدينة بالخبر، وعم النفوس البشر والسرور، وأما نساؤه فقد نالهن الحزن، لأن كلاً منهن كانت تطمح لمثل هذه العطية وتعيش على أمل أن تصنحه منها الولد.

حديث الإفك الجديد:

وسرى همس مسموم، وبه أغمز ولمز، ثم ارتفع صخبه، ورؤج المنافقون لحديث إفك جديد، يتهم مارية في طهارتها ويخدش عفتها، وقالوا: عالج يدخل على علجة والمقصود العبد (مابور) الذي جاء معها ضمن هدية المقوقس إلى رسول الله ﷺ. وكان وقع مثل هذا الحديث على رسول الله ﷺ شديد الوطأة، وكان بد من حسم الأمر، فاستدعى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد روى البزار والضياء المقدسي في صحيحه عن علي رضي الله عنه قال: «كُثِرَ على مارية أم إبراهيم في قبطي ابن عم لها، كان يزورها ويختلف إليها، فقال لي رسول الله ﷺ: «خذ هذا السيف فانطلق به، فإن وجدته عندها فاقتله»، قال: قلت: يا رسول الله، أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسَّكَّةَ للمُحَمَّاة، لا يشينني شيء حتى أمضي لما أمرتني به، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ قال: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب».

فأقبلت متوشحاً السيف، فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما رأيته أقبلت نحوه، عرف أنني أريده، فأتى نخلة، فرقي، ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شغل برجله، فإذا هو أجب أمسح، ما له قليل ولا كثير، فغمدت السيف، ثم أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته. فقال: «الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت»^(١).

سرور النبي ﷺ تبرئة الله لمارية على لسان جبريل:

وروى البزار بسند جيد عن أنس رضي الله عنه قال: «لما ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ من مارية جاريته، وقع في نفس النبي ﷺ منه شيء، حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم»^(٢).

(١) أخرجه البزار من كشف الأستار ١٨٨/٢ - ١٨٩، وأبو نعيم ١٧٧/٣ - ١٧٨.

(٢) أخرجه البزار من كشف الأستار ١٨٩/٢، وطبقات ابن سعد ٢١٤/٨.

واطمأن قلب النبي ﷺ وفرح برحمة ربه - الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء - وتبرئة مولاته مارية، على لسان جبريل الأمين.

وقال قائل: «إن رسول الله ﷺ منطلق إلى مولاته، فقال ﷺ: «أعتقها ولدها». ولما بلغ إبراهيم من العمر ستين، مرض مرضاً شديداً فأرسلت أمه «مارية» إلى أبيه رسول الله ﷺ حتى يراه.

وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ:

يقول أنس: لقد رأيته - أي إبراهيم - وهو يكيد نفسه، وهو في الترع - بين يدي رسول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله! يا إبراهيم! إنا بك لمحزونون»^(١).

وشاع خبر وفاة إبراهيم، وصادف حصول كسوف للشمس، فقال بعض الناس: كفت الشمس لموت إبراهيم!. وكان الرد من النبي ﷺ وشيكاً، في حديث صحيح أورده الإمام البخاري.

عن المغيرة بن شعبة قال: كَفَت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كَفَت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ «إن الشمس والقمر لا ينكفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا لله»^(٢). وودعت «مارية» وحيدها، وأخذت تردد قول الله عز وجل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»^(٣).

حتى إذا استمرت على صبرها ورضاها بقضاء الله وقدره جاءها ما أنساها حزنها على ولدها إبراهيم، وأي شيء أعظم من فقد، إبراهيم إلا رحيل أبي إبراهيم، محمد ﷺ؟

(١) أخرجه مسلم في الفضائل برقم ٦٢/٢٣١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الكسوف برقم/٩٩٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

وفاتها:

لكنها بقيت محافظة على عهده دائبة على إخلاصها لله ولرسوله ﷺ حتى أتاهم اليقين، بعد قرابة خمس سنوات من وفاة مولاها رسول الله ﷺ. ففي سنة ست عشرة للهجرة - وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - أسلمت أم إبراهيم روحها إلى بارئها، فحشد الناس لجنازتها ثم صلي عليها ودفنها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أجمعين.

رحم الله أم إبراهيم مارية وأسكنها جنة النعيم.

ريحانة بنت زيد رضي الله عنها:

اسمها ونسبها:

هي ريحانة بنت زيد رضي الله عنها.

والدها:

كان أبوها يدعى زيد بن عمرو بن خنافة بن من بني النضير، وقيل من بني قريظة، ولها زوج منهم يقال له (الحكم).

رفضها الإسلام ثم دخولها فيه:

وقعت ريحانة في سبي رسول الله ﷺ فاصطفاه لنفسه، وعرض عليها الإسلام فأبت، فغزلها، ووجد في نفسه لذلك، فأرسله إلى ابن سعية وأخبره خبرها. فقال ابن سعية: فذاك أبي وأمي هي تسلم. وخرج من عند رسول الله ﷺ حتى جاءها، وقال لها: لا تتبعي قومك، فلقد رأيت ما أدخل عليهم حُيَيَّ بن أخطب، فأسلمي يصطفيك رسول الله ﷺ لنفسه. وراح يعطيها من تعاليم الإسلام ويحييها فيه، ومدى المكانة العظيمة التي سوف تكون لها، حتى وافقت ودخلت في دين محمد ﷺ. وانقلب ابن سعية إلى رسول الله ﷺ بالبشرى. وبينما رسول الله ﷺ في أصحابه، سمع وقع نعلين، فقال: «إن هاتين لنعلا (ابن سعية) جاء يبشّرني بإسلام ريحانة». وجاء ابن سعية فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسرّ رسول الله ﷺ كثيراً، وأمر بإرسالها إلى بيت «أم المنذر بنت قيس»

فجلست عندها ريحانة حتى حاضت وطهرت من حيضها.

تخير النبي ﷺ لها:

ثم جاءها الرسول ﷺ في بيت أم المنذر وقال لها: إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت، وإن أحببت أن تكوني في ملكي أطوك بالملك، فعلت». واختارت أن يطأها رسول الله ﷺ بملك اليمين، فأجابها لذلك^(١).

وقال ابن أبي ذئب: سألت الزهري عن ريحانة فقال: «كانت أمة لرسول الله ﷺ، فأعتقها وتزوجها، فكانت تحتجب في أهلها، وتقول: لا يراني أحد بعد رسول الله ﷺ».

وعن عمر بن الحكم قال: «أعتق رسول الله ﷺ ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، وكانت عند زوج لها، وكان محباً بها مكرماً، فقالت: لا أستخلف بعده أبداً، وكانت ذات جمال، فلما سيت بنو قريظة عرض السبي على رسول الله ﷺ فكنت فيمن عرض عليه، فأمر بي فعزلت، وكان يكون له صفي في كل غنيمة. فلما عزلت خار الله لي فارتحل بي، إلى بيت أم المنذر بنت قيس أياماً حتى قتل الأسرى وفرق السبي، ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ فتجنبت منه حياءً فدعاني فأجلمني بين يديه، فقال: «إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله ﷺ لنفسه»، فقلت: «إني أختار الله ورسوله». فلما أسلمت أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني وأصدقني اثنتي عشرة أوقية ونشأ، كما كان يصدق نساءه، وأعرس بي في بيت أم المنذر، وكان يقسم لي كما كان يقسم لنسائه، وضرب عليّ الحجاب.

وقيل: إن رسول الله ﷺ كان معجباً بها، وكانت لا تسأله شيئاً إلا أعطها ذلك. فقيل لها: لو كنت سألته بني قريظة لأعتقهم، فقالت: لم يخل بي حتى فرّق السبي.

وروي أنها غارت عليه غيرة شديدة فطلقها تطليقة، فأكثر البكاء، فدخل

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

عليها وهي على تلك الحالة فراجعها، ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع سنة عشر، وكان تزويجه إياها في المحرم سنة ست من الهجرة، فدفنها بالبقيع^(١).

وقد جزم خلائق أن ريحانة كانت موطوءة له بملك اليمين^(٢).

ورجح الواقدي أمر عتقها وتزويجها في طبقاته وهو أثبت الأقاويل^(٣).

وروي عن ابن شهاب قال: «واستمر رسول الله ﷺ ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها فلحقت بأهلها».

رحم الله ريحانة التي سعدت بدخول بيت النبوة، وجعل مثواها الجنة.

(١) عيون الأثر ٣٠٦/٢.

(٢) الاستيعاب ١٨٤٧/٤.

(٣) طبقات ابن سعد ١٣١/٨.